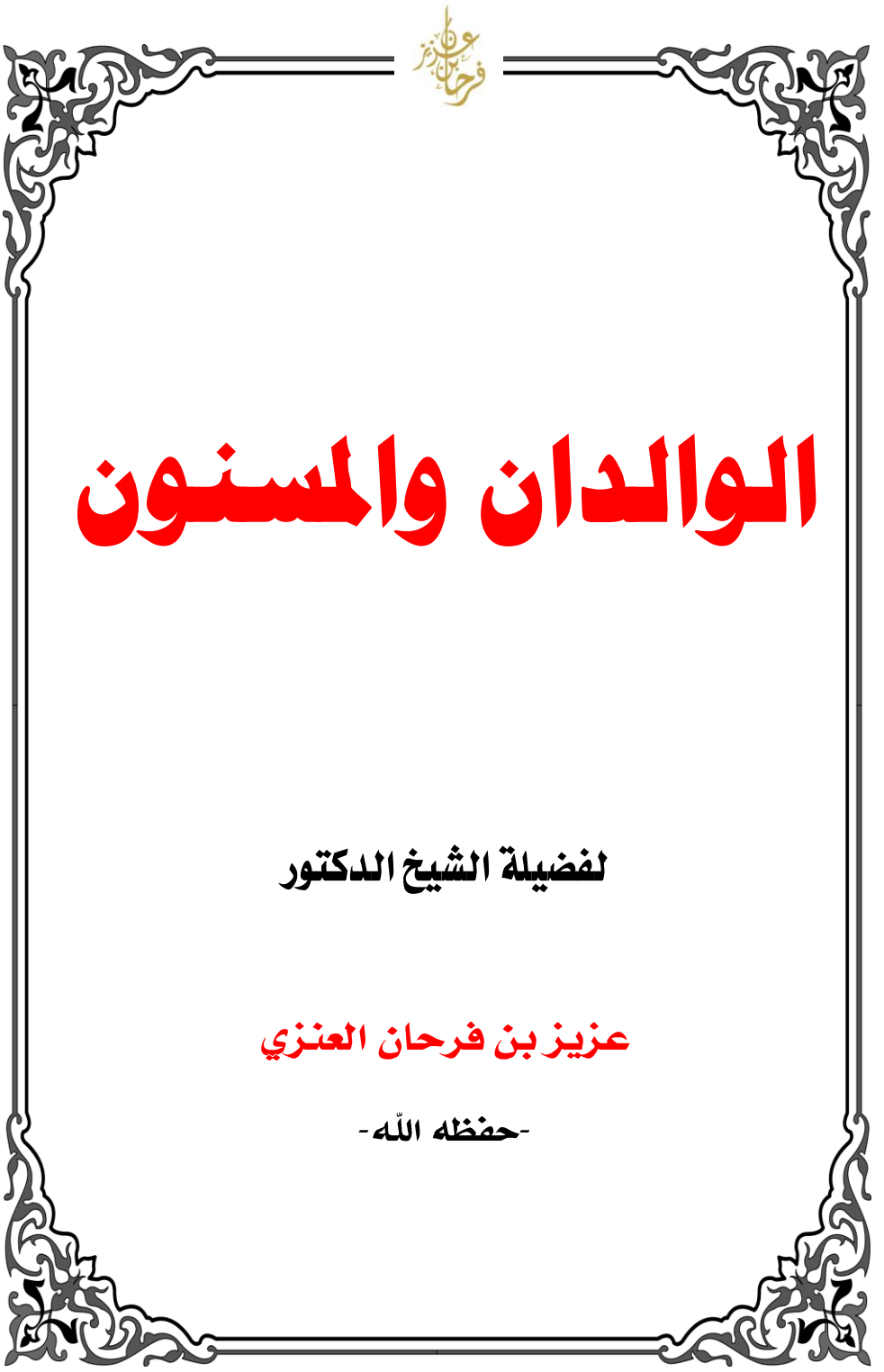

الوالدان والمسنون

لفضيلة الشيخ الدكتور

عزيز بن فرحان العنزي

-حفظه اللّه-

الوالدان والمسنون

الحمد لله الذي خلق كل شيءٍ فقدَّره تقديرًا، والحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان؛ ليكون للعالمين نذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً يأمن مَن قالها، وعَمِلَ بمقتضَاهَا يومَ الفزعِ الأَكبَر، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّهُ وخليله، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونصح الأمة، فصلَّى الله وسَلَمَ وباركَ عليه، وعلى آله، وأصحابه، وسَلَمَ تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعد:

فيا أيها المؤمنون، أوصيكم ونفسي بتقوى الله في السرِّ والعلن، واعلموا أن التقوى نجاتكم يوم يُنصَبُ الصِّراط، وبرهانكم يوم تَلتبِس الأمور، ويختلط الظلام بالنور.

والتقوى -يا أيها المؤمنون- هي وصية الله للأولين والآخرين، قال -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، والتقوى رأس كلِّ فلاحٍ ونجاح، ومَن لم يتق الله، فقد باء بالخسران المبين.

عباد الله، إن شريعة الإسلام عدلٌ كلها، حيث إنَّها وفَّرَت الحقوق ذويها، وأعطت الحظوظ مستحقيها، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

ومن الأمور التي جاءت بها شريعة الإسلام: النظر إلى الشيوخ وكبار

السن، والذين دلفت بهم الأيام والسنون إلى عُمرٍ مُتقدم، نظرت إليهم نظرة إجلالٍ واحترامٍ وتقدير، فهذه نصوص الكتاب والسنة تُشير إلى حقوق هذا الجنس من الخلق؛ ذلك أنه ما من أحدٍ من بني آدم إلَّا وهو يمر بمراحل ثلاث:

- أولًا: مرحلة الضعف حين الولادة، والصغر.
- ثم مرحلة الشباب والفتوة، والقوة.
- ثم بعد ذلك مرحلة الأفول، ومرحلة الضعف، والذهاب إلى أرذل العُمر.

قال الله ﷻ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ ﴾ [الروم:٥٤]، نعم -عباد الله-، هذه هي مراحل الإنسان في واقع الحياة.

وفي واقع الأمرِ يُولَد صغيرًا مُحتاجًا إلى أمه وإلى أبيه، ومُحتاجًا إلى رعاية الآخرين، ثم يتنقل إلى مرحلةٍ أخرى وهي: مرحلة القوة والشباب، ثم بعد ذلك يبدأ الأفول حيث الضعف، وحيث الوهن، فيبلغ الشَّيبُ الرأس، ويحدودب الظهر، ويحتاج الإنسان إلى من يُعينه، ولذلك هذه هي طبيعة الحياة في واقع الأمر، حقٌّ على الله ﷻ ما ارتفع شيءٌ إلَّا وضعه.

هذه المراحل التي يمرُّ بها الإنسان، لا شك أنه في حال الكِبر أشدُّ حاجةً من كُل ذي وقتٍ، ذلك أن الإنسانَ في حال الكِبر يكون أسير كثيرٍ من الهموم، وكثيرٍ من الأمور؛ فهو يحتاج مَن يُعينه، ويحتاج مَن يُساعده، ويحتاج مَن يصبر على أدواءه، وعلى أمراضه، وعلى كثيرٍ من أموره؛ ولذلك جنس الإنسان يدخل تحت القاعدة العامة التي قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠]، فهذا الإنسان مكرمٌ عند الله ﷻ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾.

بل؛ إنَّ الله نظَرَ إلى كبير السِّن وإلى هذا الشيخ الطاعن في السن، نظر إليه نظر رحمة، ونظر عطف ﷻ وتقدَّس، ولذلك جاءت كثيرٌ من الأحكام الشرعية مُخففةٌ عن كبار السن، من ذلك مثلًا: القيام في الصلاة، صحَّ عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قال: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»(١)، وهذا التوجيه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ داخلٌ في قاعدة قول الله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

كثيرٌ من كبار السن بسبب كِبر سنهم، ووهن قوتهم، وضعف بُنيتهم لا يستطيعون القيام في الصلاة؛ فاحتاجوا إلى التخفيف؛ فجاءت الشريعة لتنقلهم من الضيق إلى السعة، ومن الحرج إلى الفرج بإذن الله ﷻ وتقدَّس.

أيضًا من ذلك: أن الإنسان إذا لم يستطع الصيام، إذا كان الإنسان كبيرًا، ولا يستطيع الصيام، فنقله الله ﷻ إلى الإطعام، كما صرحت بذلك الآية الكريمة بنقله إلى الإطعام: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ﴾ [المجادلة:٤].

وأيضًا فيما يتعلق بأمور الحجِّ، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، قال أهل العلم: الاستطاعة هنا نوعان: استطاعةٌ مالية، واستطاعةٌ بدنية، فإذا لم يستطع الشيخ الكبير لم يستطع الحج ببدنه، وكان قادرًا بماله، وعدم الاستطاعة ميؤوسٌ من أن تعود إليه القوة، له أن يُنيب من يحجُّ عنه.

وقد جاءت امرأةٌ إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تُخبره بأنَّ فريضة الحج أدركت أباها شيخًا كبيرًا لا يستطيع الركوب على الراحلة ولا الاستقرار عليها، فأرشدها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى أن تحجَّ عن أبيها، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) من طريق عمران بن حصين -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

«حُجِّي عَنْ أَبِيكِ»[١].

كذلك الصلاة، وجَّهَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أئمة المساجد والجوامع إلى أن يكون شعورهم جماعيًا، بمعنى: أن الإمام إذا كان شابًا قويًا، فلا يُصلي على قدر قوته ونشاطه، لا، وإنما يُصلي حينما ينظر إلى أضعف جماعتهم، وإلى أقلهم قدرتهم على الوقوف في الصلاة.

فحيث كان في المسجد رجلٌ ضعيفٌ ينبغي للإمام أن يتجه فيُصلي بالقدر الذي يستطيعه هذا الرجل؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لعثمان بن أبي العاص: «**وَاتَّخِذْ مُؤَذِّنًا؛ لَا يَأْخُذُ عَلَى آذَانِهِ أَجْرًا**»، وقال له: «**وَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِم**»[٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ، وفِيهِمْ المريض، وفِيهِمْ ذَا الْحَاجَةِ**»[٣]، وهذا توجيهٌ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للالتفات إلى هذا الجنس من المسلمين الذين بلغ بهم السنُّ مبلغًا؛ لا يحتملون طول القيام في الصلاة، ولذلك يُخطئ كثيرٌ من أئمة المساجد حينما يُبطئون الصلاة بناءً على قُدرتهم في تحمل الإطالة.

ولذلك جاء رجلٌ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشكوا إليه من طول صلاة فلان، يُخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأنَّه يُحب الصلاة، ويُحب

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤) من حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٣١)، والترمذي (٢٠٩)، والنسائي في "الكبرى" (١٦٤٨)، وأحمد (١٦٢٧١) من عثمان بن أبي العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٥/ ٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٢)، ومسلم (٤٦٦) من طريق أبي مسعود الأنصاري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

المساجد، ولكن يمنعه من الصلاة في مسجده لما يُطيِّل فُلان، قال الراوي: **فما رأيت النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **وعظ موعظةً غضب فيها من تلك الموعظة، ثم قال: «إِنَّ مِنْكُمْ لمُنَفِّرِينَ، إِذا صَلَّى بِالنَّاسِ؛ فَلْيُخَفِّفْ»**[١].

وقال لمُعاذ كما هو الحديث المعلوم المعروف، قال: **«أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ إِذا صَلَّى بِالنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ»**[٢].

ولا شك أن في هذا نظرةٌ إلى أولئك إلى كبار السن الذين يحتاجون إلى أن يُرفق بحالهم، وإلى أن يُصلى بهم صلاةً يستطيعون فيها الخشوع والطمأنينة، وأن يأتوا بها في انشراح صدرٍ، وطمأنينة قلبٍ، وإقبالٍ على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك يقول عُمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **إن منكم لمنفرين**، وجاء عنه في لفظٍ آخر: **إن من الناس ليُبغِّض العباد إلى الله. قالوا له: كيف ذلك؟ قال: يقوم أحدكم يُصلي فيُطيل في صلاته**[٣].

أيها المؤمنون؛ نظرت الشريعة على كبار السن نظرة إجلال واحترام، ذلك أنَّ كبار السن هم أشجار الوقار، عرَكَتهم الأيام، وحنَّكتهم التجارب، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يأمر بتقديمهم في الكلام، وبتقديمهم في الدخول، وبتقديمهم في المجالس؛ كل ذلك احترامًا لأولئك النفر الذين علا الشيب رأسهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١)، ومسلم(٤٦٥) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في"المصنف"(٢٦٥١٧)،وأبو في"داود الزهد" (٧٠).

حتى إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في قصةٍ حينما رأى الناس يتدافعون إليه؛ ليحظوا بالقُرب منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأي منزلةٍ، وأي رُتبةٍ أن يكون الرجل رُكبته تُلامس رُكبة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ فنظر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى شيخٍ كبيرٍ يتهادى وكأنه في بحرٍ يتلاطم أمواجه بين الناس، يدفعونه ذات اليمين وذات اليسار، وهو يُريد أن يُقبِل على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا المنظر شدَّ انتباه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وقال لهم: دعوا الشيخ يدخل، ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَلَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**»(١).

«**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْكَبِيرِ**»(٢)، هذا هو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومرةً جاءه نفرٌ فقام أحد هؤلاء النفر وكان شابًا يافعًا حسن المنطق، فقال بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قولًا جميلًا، ولكن كان في القوم من هو أكبر منه، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**كبِّر كَبِّر**»(٣)، يعني قدِّم من هو أكبر منك سنًا.

هذا هو المنهج الشرعي في التعامل مع أولئك النفر، وهم كبار السن من آبائنا وأمهاتنا، «**كبِّر كَبِّر**»، وفي الحديث: «**بَينَهُم**».

إن من النماذج السيئة التي ترسم صورةً تدل على عدم التربية الشرعية

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وأحمد (٧٠٧٣) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (ص: ١٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وابن خزيمة (٣٣١٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٧٣)، ومسلم (١٦٦٩)، من حديث: سهل بن أبي خيثمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عند كثيرٍ من الناس: حينما يكون كبير السن في المجلس؛ فلا يؤبه له ولا يُنظر إليه، وإنما يتراشق الناس بكلماتٍ وبألفاظ في حضور أولئك النفر الذين هُم أشجار الوقار، والذين هم أكثر درايةً في الحياة.

والمثل العامي ماذا يقول؟: "من كبرك بيومٍ؛ فهو أعلم منك بسنة"، فيُتركون ويُهملون وكأن الأمر لا يعنيهم، وكأنهم على هامش الحياة، وهذا ليس من أدب مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي أدبنا به -صلى الله وسلم وبارك عليه-، أدبنا أن نحترم كبار السنِّ، وأن نُوقرهم، وأن نستفيد من تجاربهم، أولئك الذين ركبوا الصعب والذلول، أولئك الذين حنكتهم التجارب وعركتهم الأيام؛ فنضجوا نضوجًا يحتاج إليه من هو دونهم في السن.

نعم -عباد الله-، هذا هو ديننا، وهذه هي سنَّة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وإن الأمر يزداد وُجوبًا، ويزداد فرضيَّةً حينما يكون كبير السن من الوالدين الذين هما الأصل والسبب في وجودنا في هذه الحياة، وقد عظم الله شأن الوالدين تعظيمًا كبيرًا، يقول ﷻ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويقول ﷻ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت:٨]، ويقول ﷻ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:١٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

بل؛ إنَّ ربَّنا ﷻ لم يذكر حقَّه إلَّا وأعقبه بذكر حقِّ الوالدين، في إشارةٍ إلى أن حقَّ الوالدين في الإسلام عظيمٌ، وإلى أن مكانتهما عند الله ﷻ عظيمةٌ، ولذلك صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أنَّه عدَّ عُقوق الوالدين من السبع الموبقات المُهلكات الجاعلات صاحبها في نار جهنم، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

«**اجتنبوا السَّبعَ الْمُوبِقات**». وذكر منها: «**وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ**»(١)، نسأل الله أن يُعافينا وإياكم من العقوق، وأن يجعلنا وإياكم من البارين بوالدينا.

ورقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مرةً المنبر فقال: «**آمِين، آمِين، آمِين. فقال الناس: مَا هَذَا يَا رَسُولَ؟ فقال: إِنَّ جِبْرِيلَ عَرَضَ إِلَيّ فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا؛ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ؛ فَقُلْ: آمِينَ**»(٢)، فمعنى أنه دعا عليه بالنار، نسأل الله العافية والسلامة، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: آمين، والأولى ما يتعلق بالصلاة والسلام عليه.

المقصود -أيها المؤمنون- أن حقوق الوالدين في الإسلام عظيمةٌ، ويتأكد الحقوق أكثر حينما يكبر الوالدان، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٣-٢٤].

المؤمن مأمورٌ بأن يكون عزيزًا لا ذليلاً، مُرتفعًا لا مُنحطًا، لكنَّه عند الوالدين تُوجب الشريعة عليه أن يكون ذليلًا، منكسرًا مُنطرحًا عند قدمي والديه، يُعينهما ويُساعدهما.

لماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [سورة الإسراء:٢٣] ؟ لأنَّ الأب، ولأنَّ الأم في هذا السن تكثر طلباتهما، ويثقلان عن الذهاب والإياب، ويحتاجان إلى المساعدة دائمًا، وهذا -لا ريبَ- يدفع الإنسان إلى التأفف، هنا يأتي العبد الذي يُراقب ربه -جل وعلا- والذي يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه، فلا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧)،من حديث: أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٤٠٩)من حديث: مالك ابن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني: صحيح لغيره. "صحيح الترغيب والترهيب" (١/ ٥٨٤).

يُخرج هذه النفثة نفثة مصدورٍ، لا يُخرجها تضجرًا من والديه، وإنما يذوب هذا التضجر، وذاك الألم، يذوب في حلاوة طاعة الله ﷻ، والتلذذ بالتعبد له بطاعة الوالدين، والتقرب إليهما.

أين أنتم من أبي هريرة -رضي الله عنه-؟ الذي ما كان يخرج من بيته، وهو من هو بلغ سنًا مُتقدمة حتى يستأذن أمه، حتى يقولون له: **يا أبا هُريرة، أبطأ علينا في الخروج؟ فكان يقول: كُنت أُقلب وجهي في روضةٍ من رياض الجنة**، كان يضع خده على رجل والدته، ويستسمح منها بالخروج.

أين نحن عن هذه النماذج الرائعة من عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-؟ حينما رأى أعرابيًا قادمًا من الصحراء، وكان عبد الله بن عُمر على دابته، فنزل عنها، ثم سلم عليه واعتنقه وعانقه، ثم فلَّ عمامته وأعطاها الاعرابي، ثم أعطاه حماره، يعني أعطاه سيارته، أعطاه هذا المركوب الذي يذهب به إلى مصالحه، فقال له الناس: (يا ابن عُمر، تُعطيه عمامتك تقيك حر الشمس، وتُعطيه دابتك تذهب بك وتأتي؟ قال: هذا كان صديقًا لعُمر) [(١)]، رحم شيبة هذا الرجل، وعرف ذلك الحق الذي أكده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنَّ المعروف، وأنَّ برَّ الوالدين لا ينقطع حتى بعد الوفاة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا**»[(٢)].

يتأكد حق الوالدين حال الكِبر، فيكون الإنسان عندهما أكثر من أي وقتٍ آخر، لماذا؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وأحمد (١٦٠٥٩)، من حديث: أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه، وضعفه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٣/ ١٣٨٠).

لأن الوالد في حال الشباب، وفي حال القوة ليس بحاجةٍ إلى ابنه؛ فهو يذهب إلى المسجد ويأتي، ويستطيع أن يذهب إلى الجمعية والسوق؛ فيشتري الحوائج، ويشتري الأمور التي يحتاجها وتحتاجها الأسرة، يأتي أيضًا يستطيع الذهاب إلى الحج والعُمرة، يستطيع الذهاب لزيارة الأرحام.

لكنَّهُ في هذه السنِّ المتأخرة يحتاج من يُعينه، ومَن يُساعده، ويحتاج مَن يكون ظلَّه الدائم الذي لا يفتر عنه لحظةً، فهذه هي مسؤوليتك -يا أيها الولد- مهما بلغ سنُّك، ومهما طعنت في السن، ما دام والدك حيًا، وما دامت والدتك حية؛ فأنت مسؤولٌ عنهم أمام الله ﷻ.

واعلم أن الأمور دين، فكما تدين تُدان، ودقةٌ بدقة، وإن زدت زاد السقة، إذا أدرت البر والإحسان من أولادك؛ فلتستعد لهذا البرِّ، ببرِّ والديك قبل أن يرحلا إلى الدار الآخرة.

وفقني الله، وإياكم إلى أن نكون من البارين بآبائنا وأمهاتنا، وإلى أن نكون من المتَّبعين لكتاب الله، ولسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأستغفر الله لكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجوا بأن ندخل بها جنة الله ﷻ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله وسلم وبارك على إخوانه، وسلم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعد:

فيا أيها المؤمنون، إن من القضايا التي تُقطع نياط القلوب، وتبعث الحُزن والأسف والحرج والضيق في الصدور، وتُنذر بسيلٍ قد انعقد غمامه: ما تسلل إلينا -معاشر المسلمين- من ذلك الإهمال بل؛ العُقوق من كثيرٍ من الأولاد لآبائهم ولأمهاتهم، حتى برزت عندنا ظواهر يأباها ديننا بل؛ تأباها قيمنا، من ذلك: وجود مراكز لرعاية المسنين.

حيث يقوم كثيرٌ من الأبناء -هدانا الله وإياهم وأرشدهم إلى الصواب- يقومون برمي والديهم في دور العجزةِ تخلصًا من هذا الثقل الذي طالما أثقل عواتقهم وكواهلهم، ويتخلصون من ذلك الإزعاج -كما يظنون ويعتقدون- الذي طالما أقلقهم، وطالما مثَّل عندهم حجر عثرةٍ في طريقِ لهوِهم، وفي طريق لعبهم، وفي طريق سيرهم في هذه الحياة التي يظنون أنهم مُخلدون فيها.

نعم -عباد الله-، ظواهر -وربي- ما كان المُجتمع الإسلامي يعرفها، ولكن بسبب حُب الدنيا، وبسبب جفاف المشاعر، وبسبب صلف القلوب، وبسبب هذا الارتكاس المادي الخطير، وحُب الدرهم والدينار، وحُب

الشهوة، غلَّب كثيرٌ من الناس شهواتهم على آبائهم وأُمهاتهم.

والله إن العين لتدمع، وإن القلب ليتقطع على أحوال كثيرٍ من الآباء والأمهات الذين رُموا في تلك الدور، لا يسأل عنهم أولادهم ولا يمرون عليهم؛ إرضاءً لزوجةٍ مستهترةٍ لا تعرف قيمةً للحياة، ولا قيمة للمبادئ والأخلاق، وإنما أكثرت الحديث وبدأت تقرُّ في أذن زوجها كما يُقرقر الشيطان في أذنه؛ حتى بلغ به أن ذهب بأبيه أو بأمه إلى دور العجزة، فرماه هنالك.

أو أن الرجل أكثر الوالد أو الأم عليه الطلبات، فقال: بدل أن أُلبي له، أو أن يكون حجر عثرة في طريق سعادته وفي لهوه، قال: أذهب به إلى دور العجزة، وإلى رعاية المسنين؛ لأتخلص من هذا الثقل، ومن هذا العبء الكبير.

نعم -عباد الله-، هذا هو الحاصل في كثيرٍ من النواحي، وفي كثيرٍ من دول العالم الإسلامي والعربي، نسأل الله العافية والسلامة، نسي هؤلاء أن الله ﷻ ناظرٌ عليهم، مُطلعٌ إليهم ﷻ، يعلم مكنونات الصدور، وما تُخفيه الضمائر.

يعلم ربُّنا ﷻ أن هذا الأمر لا شك أنَّ عاقبتَهُ عظيمةٌ، والله -جل وعلا- لا تخفى عليه من عباده خافيةً، ولذلك فالأمور قائمةٌ على العدل، وعلى القسطاس المستقيم.

كثيرٌ من هؤلاء الناس يُعانون حرجًا وضيقًا، يتعرضون لأزماتٍ نفسيةٍ، ولاضطراباتٍ قلبيةٍ، ولخساراتٍ، ولفتنٍ تشتعل في البيوت، وهم يضربون كفًا على كفٍ، وما يدرون ما السبب؟ والسبب من قِبَلِ أيديهم.

نعم، الدول تُشكر، والحكومات يُثنى عليها حينما أنشأت دورًا لرعاية المُسنين؛ تُؤويهم من الحر ومن البرد، وتُسهم في علاجهم، وفي رعايتهم، وفي

تنظيفهم، وفي السهر عليهم، ولا شك أن هذا عملٌ جليلٌ، لكننا نطمع، ومتى يأتي ذلك اليوم الذي تختفي فيه دور العجزة ودور الرعاية لهؤلاء المسنين؟ نعم، ذلك اليوم يأتي حينما يشعر كلُّ مسلمٍ بمسؤوليته تجاه والديه، وتجاه آبائه وأمهاته، سواءً كانوا قريبين، أم بعيدين من الأجداد، ومن الجدات.

نعم -عباد الله-، هذا هو الواجب علينا -معاشر المسلمين-، أن نتقي الله ﷻ، وأن نتعبده ﷻ بطاعة الوالدين، هذان الوالدان هما السبب في وجودنا في هذه الحياة، النبي ﷺ قال: «**الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**»(١)، وقال ﷺ: «**الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ**»(٢).

فلتنظر -يا عُبَيد الله-، فلتنظر أين محلك من الجنة أم من النار؟ فإن كُنت من البارين فأنت من أهل الجنان والرضوان -بإذن الله الرحمن-، وإن كنت من العاقين؛ فالويل ثم الويل ثم الويل، فالنار موعد العاقين، كما صحَّ بذلك الخبر عن نبينا ﷺ.

وإنَّنا حينما نُشير إلى هذه الشرذمة القليلة التي لا تُمثل المسلمين أصلًا في واقع الحياة، ينبغي لنا ونحن في هذا السياق أن نُشير إلى الصفحات المشرقة من هذه الأمة من رجالها ونسائها الذين ضربوا أروع الأمثلة، وأجلَّها وأسماها في برِّ الوالدين، فنحن -ولله الحمد- لدينا حصيلةٌ عظيمةٌ، وعددٌ كبيرٌ -ولله الحمد والمنة- من الأولاد، سواءٌ كانوا بنينًا أو بناتًا، الذين ضربوا

---

(١) أخرجه الدولابي في "الكنى والأسماء" (١٩١١)، والقضاعي في "مسنده" (١١٩)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (١٧٠٢)، من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وأحمد (٢٧٥١١)، من حديث: أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢/ ٦٥٠).

أروع الأمثلة في برِّ الوالدين، وفي التقرب إلى الله ﷻ بطاعتهما، وببرهما.

لكننا حينما نُنبه على تلك الظواهر السلبية، وذلك النشاز، إنما نُؤكد على أن هذا مما ترفضه شريعتنا الإسلامية السمحاء، وأيضًا نقطع الطريق على ضعاف القلوب وقليلي التقوى الذين قد يُقلدوا من لا خلاق لهم؛ حينما يرمون بوالديهم هكذا في دور العجزة، وفي دور الرعاية.

اتقوا الله -أيها المسلمون-، واعلموا أن للمسنين حقًا عليكم جميعًا، ويكون الحق خاصًا حينما يكون هذا الكبير قريبًا منك، أو من أرحامك.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يُوفقني وإياكم لهُداه، وأن يجعل أعمالنا جميعًا في رضاه، وأن يُعزَّ دينه، وأن ينصر كلمته، وأن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يُذل الكُفر والكافرين، وأن يحمي حوزة الدين، إن ربي سميعٌ مُجيبٌ.

اللهم وفقنا لأحسن الأعمال، والأقوال، والأخلاق، واهدنا لها -يا رب العالمين-، وجنبنا سيءَ الأقوال، والأعمال، والأخلاق، لا يُجنبنا سيئها إلَّا أنت، اللهم، اجعل التقوى لنا أربح بضاعة، وثبت أقدامنا يوم تقوم الساعة، ولا تجعلنا -يا ربنا- من أهل التفريط والإضاعة، اللهم، وفقنا ويسرنا لليُسرى، وجنبنا العُسرى، واغفر لنا في الآخرة والأولى.

اللهم، وفق جميع المسلمين والمسلمات، المؤمنين والمؤمنات، للعلم النافع والعمل الصالح الذي يُرضيك -يا رب العالمين-، ووفق -اللهم- جميع ولاة أمور المسلمين للحُكم بكتابك وسُنة نبيك ﷺ، وأعنهم على البر والتقوى، وزد -اللهم- ولاة أمر هذا البلد من التوفيق والهُدى، إنك على كُل شيءٍ قدير.

اللهم، آمنا في أوطاننا، اللهم، آمنا في أوطاننا، وجنبنا –اللهم– الفتن ما ظهر منها، وما بطن، عن بلدنا هذا خاصةً، وعن سائر بلاد المُسلمين عامةً برحمتك –يا أرحم الراحمين–، ربنا، آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

عباد الله، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمُنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون، فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على وافر نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.